عدد خاص

حلقة حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها

بغداد ٨ ـ ١٩٧٥/١١/١٧

المورد

مجلة تراثية فصلية . تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ

المجلد الخامس

أبو العلاء المعري : المرأة في اللزوميات

بقلم
ناجية مراني

بعد دراستي اللزوميات(١) ، ووقوفي متأملة موضوع المرأة وجدت ان ابا العلاء(٢) لم يكن ذاتيا في حديثه عن النساء ، اللهم الا في موضعين نفى الحب والزواج عن نفسه ، اذ قال في احدى اللزوميات :

تواصلَ حبلُ النسلِ ما بين آدم
وبيني ، ولم يوصل بلاميَ باءُ(٣)

وقال في اخرى :

وما بكيتُ رميماً وهي نائيةً
وان علمتُ حبال الوصل أرماما(٤)

ووجدت ايضا ان موقف المعري من المرأة ذو جانبين :

أ ــ جانب مع المرأة ويتضمن :

١ ــ ثناء عليها .

٢ ــ نصحا وتحذيرا لها .

٣ ــ دفاعا عنها .

ب ــ وجانب آخر ضد المرأة ويحوي :

١ ــ ذما لها

٢ ــ نصحاً وتحذيراً منها .

وسأعرض فيما يلي أمثلة لكل من الجانبين ، ثم احاول الموازنة والحكم في رجحان السلبية او الايجابية في الموضوع .

ابدأ بما اسميته ثناءً على المرأة ، فأرى هذا الثناء مصحوبا في الغالب بشرط ، او بشرط وتحذير معا . والمس من هذا الثناء ان اهم ما يهم المعري هو حرمة المرأة وعفتها . فالمرأة حين تسمو بنفسها عن كل الريب والشبهات تكون جديرة بالفضل والمكارم . يقول ابو العلاء في هذا :

اذا ما غضوبٌ غاضبتْ كلَّ ريبةٍ
وكانت لميسٌ لا تقرُّ على اللَّمسِ
فقد حازتا فضل الحياة وعُدِّتا
مكان الثريّا في المكارمِ والشمسِ

ويؤكد المعنى نفسه في مكان آخر فيقول :

وخير النساءِ الحاميات نفوسها
من العار قبل الخيل تحمي ذمارها(٦)

وهو يبارك جمال المرأة ونسلها ، ويعتبر الزاج بها حظوة يحسد عليها الرجل ، ولكنه يأتي بذلك مع شرط وتحذير ، فيقول :

---

(١) اللزوميات طبعة صادر ، ١٩٦١ (جزءان) ، وكل الامثلة الواردة في هذا البحث مأخوذة من هذه الطبعة ومرقمة حسب الجزء والصفحة .

(٢) لابي العلاء المعري ترجمة في المصادر الآتية : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، مكتبة امين الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ، ١٩٣١ ، الجزء الرابع ، ٢٤٠ــ ٢٤١ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة في بيروت ، الجزء الاول ١١٣ــ١١٨، معجم الادباء لياقوت الحموي ، تحقيق مرجليوث ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٢٣ ، ١٦٢ــ١٩٥ ، رسائل ابي العلاء المعري ، تحقيق مرجليوث ، وفيه ترجمة ابي العلاء المعري للذهبي ، ١٢٩ ــ ١٣٧ ؛ تعريف القدماء بابي العلاء ، دار الكتب ، ١٩٤٤ ، وفيه معظم ما كتب عن ابي العلاء في المصادر القديمة .

(٣) ١ : ٤٢

(٤) ٢ : ٤٣٠

(٥) ٢ : ٣٩

(٦) ١ : ٤٩٤

اذا كانت لك امـــــراةٌ حصـــــانٌ
فانت محسَّـــدٌ بـــين الفـــريق
فان جمعت الى الاحصـان عقـــلاً
فبـــورك مثمـرُ الغصنِ الوريقِ(٧)

ويستطرد محذراً انحـــرافاً عاماً في نفوس الخلقِ فيقول :

ولا تأمـن فـــان النفـــس اضحتْ
الى النكـــراء كالريـح الخـريـق(٨)

ويثني الشاعر على المراة بشـرط آخـر هو العمل ، ويقرن المراة التي تتعاون ورجلها فيمـــا يعود بالنفع على الاسرة بالجنة ، ويأمـر بالتشاور معها والانجاب منها ، اذ يقول :

اذا ردنتْ فيمـــا يعـود لطفلهـــا
بنفعٍ ، فآمرهـــا ورجِّ امارهـــا
وجنتك الاولى عروســـك وافقـت
رضاك ، فان اجنتك فاجنِ ثمارها(٩)

ويستطرد ايضا محذرا غدر الدنيا ، فيقول :

وما هذه الدنيا بأهل وديعـــةٍ
فلا تأتمنها ، قـــد عرفت امارهـــا(١٠)

وهو يحمد حمدا مطلقا النساء اللائي يكسبن عيشهـن بشرف ، ويعظم اجرهـن ، فيقول :

والله يغفر في الحســـاب لنســـوةٍ
جاهدن اذ فقـــد الحيا بمغـــازل
فكســـبن منهـــا ما يقـوم بأنفسٍ
والصبـر يبدنُ في الزمـان الهازل(١١)

ويفضل المعري المراة تجيد الغزل وتجهـــل اقانين الغزل والعزف والراح ، ويستسقي لهـــا وان كانت شوهاء ، فيقول :

سقيا لشـــوهاء ما همت بفاحشـة
غدت على الغزل ليست تعرف الغـزلا
وتجهل العـود الا عـــود مغزلهـــا
ولاتـــراحُ اذا ما عـــاتقٌ بُزلا(١٢)

وهو يعظم الام ، ويفضلهـــا على الاب ، موضحا في مقارنة طريفة . دورها الرئيس في اهم عملية حيوية هي (عملية) الانجاب ، فيقول :

واعط ابـــاك النصفَ حيًا وميتـــاً
وفضـل عليه من كرامتهـا الأمّـــا
اقلتْك خفـــاً اذا اقلتكَ مثقـــلاً
وارضعت الحـــولين واحتملت تمًـا
والقتـك عـن جهد والقـــاك لـــذةً
وضمتوشمت مثلما ضمَّ او شمَّا(١٣)

نلحظ مـن الامثلة السابقة اعتزاز المعـري بالمراة الحرة ، واحترامه واكرامـه الام ، مـــع عدم الغفلة عـن التحذير مـن الدنيا والنـاس . ولا يكتفي ابو العلاء بمثل هذا التحذير العـــام، بل يتعداه الى نصح النساء خاصة وتحذيرهـن ، مبينا لهـن مواطـن الامان ومكامن الخطر . امـــا الاولى فهي الزواج والبيت والمغزل ، واما الثانيـة فهي الحـج والحمـام والاعـراس وتلقي التعليـم والمواعظ وما شابه ذلك من وسائل الاختـــلاط . الاختلاط . فهو يرى ان الزواج خير مـن يصـون الفتاة ويحميها ويقيها مصاعب الحيـــاة ، اذ يقول :

وما حفـــظ الخريـدة مثـلُ بعـلٍ
تكـون بـــه مـــن المتحـــرمات
يحيـــط ذمارهـا مـن كـل خطـبٍ
ويمنعهـا مصـــاعب مقـــرمات(١٤)

وهو يفضل الفتاة المحجبة ، وينصح الرجل الذي يريد الزواج ان يتزوج بامثالها ، فيقول :

تـــزوج ان اردت فتـــاة صـدق
كمضمر نِعْـم دام عـلى الضـــمير
اذا اطلـــع الاوانس لـــم تطلَّـــعْ
الى عـــرسي تمـــرٌ ولا امـــير(١٥)

وينصح ذا النعمة بان يحسـن تربيـــــة بناتـــه ، وذلك بالزامهـن البيت والمغـــزل ، فيقول :

ان نشـــأت بنتـك في نعمـــة
فالزمنهـــا البيتَ والمغـــزلا
ذلـك خـير مـن شـوارٍ لهـا
ومـــن عطـــايا والـدٍ اجـــزلا(١٦)

---

(٧) ٢ : ٢١٠.
(٨) نفس المكان
(٩) ١ : ٤٩٣ ، ونفس المعنى ورد في ١ : ٢٤٢
(١٠) ١ : ٤٩٣
(١١) ٢ : ٣٥٢ وكذلك نفس المعنى في ١ : ٢٧٤
(١٢) ٢ : ٢٩١ وكذلك ١ : ١٢٨ .
(١٣) ٢ : ٤١٦ وانظر نفس المعنى في ٢ : ٥٥٤
(١٤) ١ : ٢٣٩ وانظر نفس المعنى في ٢ : ٤٣٠
(١٥) ١ : ٥٥٨
(١٦) ٢ : ٣٠٦

ويشير على ام البنات بالاحتراس من المفسدين واشغال بناتها في البيت بالمغزل ، فيقول :

نصحتك يا أم البناتِ فحاذري
وساوسَ ولاجِ الاساودِ خنّاسِ
ولا تلبسي الحجلين بنتك والبسري
لتشهد عرساً واشغلنها بعرناسِ(١٧)

ويوصي الآباء في مكان آخر من اللزوميات بعدم تعليم الفتيات القراءة والكتابة ولا التبحر بالقرآن ، والاكتفاء بتعليمهن مهنة ذات فائدة ، فيقول :

علموهن الغزل والنسج والرّدْ
نَ ، وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاةِ بالحمد والاخ
لاصِ ، تجزي عن يونس وبراءه (١٨)

ويستطرد محذرا من غناء القيان ويعتبره هتكا للستر ، حتى وان كان من وراء حجاب ، فيقول :

تهتك الستر بالجلوس امام السـ
ـتران غنت القيان وراءه (١٩)

وهو يطلب الرحمة لاقوام صانوا نساءهم بالبيت والمغزل ، ويحمل ضمنا على تعليم الفتيات وتعاطيهن العزف والغناء والخمرة ، فيقول :

رعى الله قوما مضى دهرهم
وما فيهم احد يهزلْ
تضاهي العناكب نسوانهم
فتنسجُ للنفعِ او تغزل
وما عزفت مزهراً في الحياة
ولا الدنّ يفتحُ او يبزلْ
جهلهن الغناء وصوتا يقالْ
غناه دحمان او زلزل(٢٠)

ويرى المعري ان العيب يكمنُ في تعليم الفتاة لاجهلها ، فيقول :

ولا تحمدْ حسانك ان توافتْ
بان للسطور مقوماتِ
فما عيبٌ على الفتياتِ لحنٌ
اذا قلن المراد مترجماتِ(٢١)

ان الامثلة السابقة تشير الى ان تعليم الفتاة القراءة والكتابة والقرآن مقترن في ذهن المعري بتعليمها الغناء والعزف وافانين الغزل ، ثم تعاطيها تلك المهن الذي يؤدي حتما الى هتك الستر . وما الحاحه على المغزل الاّ لتجنيبه المرأة الفاقة او الفراغ فالانزلاق الى الرذيلة . وينهى ابو العلاء النساء عن الحج . ويكون في ذلك اكثر وضوحا وجراة ، اذ يقول في احدى لزومياته آمرا النساء بالركون الى البيت وعمل البر ، ونافيا ان يكون الحج فرضا عليهن مع ما في ذلك من مخالفة لقواعد الشريعة ، وشارحا الاسباب التي دعته الى ذلك من فساد سدنة البيت وسوء اخلاق القوم عامة ، فهو يقول :

اقيمي ، لا اعدْ الحجَّ فرضاً
على عجز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة سادنيها
اذا راحت لكعبتها الجمارا
قيامٌ يدفعون الوفد شفعا
الى البيت الحرام وهم سكارى
اذا اخذوا الزوائف او لجوهم
ولو كانوا اليهود او النصارى

ويستطرد قائلا :

متى آداكِ برٌّ فافعليه
وقولي ان دعاك الخير آرا(٢٢)

وينهي المرأة كذلك عن الذهاب الى الحمامات خشية تعرضها للغواية ، وذلك بسبب اختلاط الامور وتنوع الناس فما يعرف رومهم من عربهم ، يقول في ذلك :

ولا تلجي الحمام قد جاء ناصحٌ
بتحريمه من قبل ان يفسد الناس
فكيف به لما اغتدى في طريقه
رجيبٌ وحواش وتنجٌ واشناسْ(٢٣)

لقد حذر ابو العلاء المرأة ونصحها ، ولم يكن ذلك بسبب رغبته في حرمانها من حقوقها المشروعة،

---

(١٧) ٢ : ٤١
(١٨) ١ : ٦٣ ؛ انظر في موضوع الغزل والنسج : ١ : ٢٣٦ ؛ ٢ : ٩ ، ٣٣ ، ٦٤ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٤٧١ .
(١٩) نفس المكان
(٢٠) ٢ : ٢٨٧
(٢١) ١ : ٢٣٦
(٢٢) ١ : ٧٣ ؛ وانظر كذلك ١ : ٢٩٤ ؛ ٢ : ٤٧١ ، ٦٢٥
(٢٣) ٢ : ٩ ؛ وانظر كذلك ٢ : ٤٣٠ ، ٤٧١

يثبت هذا القول ما ورد في اللزوميات من دفاع عن تلك الحقوق ، ومهاجمة الافراد والانظمة الاجتماعية والدينية التي تسيء الى المراة وتنتقص من كرامتها وانسانيتها . فالمعري يحمل على تعدد الزوجات ، ويتناول الامر من جانبيه النفسي والاجتماعي ، فالمراة لا ترضى الشركة في رجلها ، وقد يدفعها ذلك الى خيانة ذلك الرجل فيرجمها على ذنبها وهو نفسه وراء ذاك الذنب ، يقول ابو العلاء في هذا :

تزوجَ بعد واحدةٍ ثلاثاً
وقال لعرسهِ يكفيك ربعي
فيرضيها اذا اقتنعت بقوتٍ
ويرجمها اذا مالتْ لتبعِ
ومن جمع اثنتين فما توخى
سبيل الحق في خمسٍ وربع(٢٤)

ويقول في مكانٍ آخر محذرا مما يسببه تعدد الزوجات من حقدٍ وخلافاتٍ واذىً :

اذا كنت ذا ثنتين فاقد محارباً
عدوينِ واحذرِ من ثلاث ضرائر
وان هنَّ ابدين المودة والرضا
فكم من حقودٍ غيبتْ في السرائر(٢٥)

ويستطرد ناهيا الرجل عن تحمل جريرة اذى الحرائر فيقول :

قرانك ما بين النساء اذيةٌ
لهنَّ فلا تحمل اذاة الحرائر(٢٦)

وينهى الشاعر عن الزواج باكثر من واحدة محذرا الرجل سوء العواقب ، فيقول في هذا :

وواحدة كفتك فلا تجاوز
الى اخرى تجيء بمؤلماتِ
وان ارغمت صاحبةٌ بضرٍ
فاجدر ان تروع بمعرماتِ
زجاجٌ ان رفقتَ بنه والا
رايت ضروبه متقصمات(٢٧)

ويستحسن المعري رفع مهر الفتاة ليكون صوتا لها ضد الطلاق ، فيقول :

مهر الفتاة اذا غلا صون لها
من ان يبت عشيرها تطليقها
هويَ الفراق وخاف من اغرامه
فادام في اسبابه تعليقها
ولربما ورثته او سبقت بها
اقدار ميتتها فكان طليقها (٢٨)

ويذم ابو العلاء زواج الشيوخ بالفتيات مذكرا اياهم بتفاهة مكانتهم في صفقة من هذا النوع ، فيقول :

تقول عرس الشيخ في نفسها
لا كنت يا شرَّ خليل صحب
انفعَ منه عندها برجدٌ
اذهبَ قرا او سقاء سحب(٢٩)

كذلك يستقبح الشاعر وجود المراة في دار رجلٍ ظالمٍ ، مذكرا اياه ان الغنى لا يقوم مقام المعاملة ، فيقول :

وغانيةٍ في دار اشوس ظالمٍ
تسوّر مما لم يجبْ وترعثُ
يصاغ لها من حليها ايم عسجدٍ
فهل امنت من لدغه حين يبعث(٣٠)

وهو يعيب قسوة الآباء على بناتهم ويصمهم بالجبن في ملاقاة اعدائهم الحقيقيين ، فيقول :

ابى سيفه قتل اعدائه
وساف وليدته اوهرا(٣١)

ويثور المعري للحرمة المنتهكة ، وينتصر للحرة اهينت كرامتها من قبل المفسدين وذلك في لزوميته « اتت جامع » ، اذ يقول :

اتت جامع يوم العروبة جامعا
تقص على الشهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها
لخلت سماء الله تمطر جمرها (٣٣)

ويبدو في هذه اللزومية تلاحم الجانبين الايجابي والسلبي من موقف المعري في موضوع

---

(٢٤) ٢ : ١٤٠
(٢٥) ١ : ٥٣٦
(٢٦) نفس المكان
(٢٧) ١ : ٢٣٨ ؛ وكذلك ٢ : ٢٤٢
(٢٨) ٢ : ٢٠٠
(٢٩) ١ : ١٨٥
(٣٠) ١ : ٢٤٦
(٣١) ١ : ٨٠
(٣٣) ١ : ٤٩٢

المراة ، فبينا نراه ينصر الحرة نصرة مطلقة ، نجده في اللزومية نفسها يهاجم الفواجر والزوامر . فالوسائل اختلفت بين مدح وذم ، وبين نصرة وخذلان ، ولكن هدف الرجل واحد هو الحفاظ على الستر . يقول المعري مستطردا في اللزومية ذاتها وحاملا على بؤرة الفساد وعلى الانظمة السائدة التي اقرت وجود مثل هذه الاماكن :

فهدوا بناء كان ياوي فناءه
فواجر القت للفواحش خمرها
وزامرة ليست من الربد خضبت
يديها ورجليها تنفق زمرها
الغنا بلاد الشام الف ولادة
نلاقي بها سوء الخطوب وحمرها
فطولا نداري من سبيعة ليثها
وحينا نصادي من ربيعة نمرها(٣٤)

وهو يذم المومسات وعملاءهن في لزومية اخرى ، فيقول :

مومس كالاناء دنسه الشرب
ووغد كانه الكلب والغ(٣٥)

وكما اقر ابو العلاء ان خير النساء هن الحافظات ذمارهن ، يقر من جهة اخرى ان شرهن المشاعات اللائي يضيعن نسب اولادهن ، فيقول :

شر النساء مشاعات غدون سدى
كالارض يحملن اولادا مشاعينا(٣٦)

وهو يحذر الشبان من زائرات الليل يحملن الخزي والعار ، فيقول :

وصن في الشرخ نفسك من غوان
يزرن مع الكواكب معتمات
فقد يسري الغوي الى مخاز
بجنح في سحائب منجمات (٣٧)

ويذم المعري المراة تتلمس الحيل كي تخون زوجها ، اذ يقول :

اعوذ بالله من ورهاء قائلة
للزوج اني الى الحمام احتاج
وهمها في امور لو يتابعها
كسرى عليها لشين الملك والتاج(٣٨)

ويحذر الرجال ضياع الرشد نتيجةملاحقتهم مثل اولئك النسوة ، فيقول :

و لاترمق بعينك رائحات
الى حمّامهنّ مكممات
فكم حلت عقود النظم وهناً
عقودا للرشاد منظمات
وكم جنت المعاصم من معاصٍ
تعود بها المعاضد معصمات(٣٩) ـ

ولا يكتفي المعري بالحملة على نسوة معينات بل يتعدى ذلك الى ذم النساء اطلاقا ، فيشبه المراة بالحية التي تلسع اقرب الناس ، اذ يقول :

وانما الخود في مساربها
كربة السم في تسربها
فلا تكوني مثل التي لدغت
تبدأ في شرها باقربها(٤٠)

ويشبه خدر العروس بمعرس الاساد ، ففيه يكمن الخطر ، اذ يقول :

خدر العروس وان كانت محببة
ادهى وافتك من عريسة الاسد(٤١)

ويقول ان النساء سيء صنعهن كالاعصار ، فيه نار يحرق ويتلف :

والمعصرات من الخراد عواصف
كالمعصرات صنيعها اعصار(٤٢)

ويشبه صوت حلي المراة بوسوسة الشيطان في الصدور ، فيقول :

---

(٣٤) نفس المكان ، انظر اللزومية كاملة وانظر تفصيل حادث الماخور وموقف ابي العلاء في : الجامع في اخبار ابي العلاء المعري واثاره لمحمد سليم الجندي مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٦٢ ، الجزء الاول: ٩٣ – ٩٦ .

(٣٥) ٢ : ١٤٧

(٣٦) ٢ : ٥١٨ . هنا نخالف راي طه حسين الذي يقول : « وفي اللزوميات ما يؤيد ميل ابي العلاء في بعض اطواره الى الاشتراكية في النساء ، فهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول :

وسيان من امه حرة حصان ومن امه زانيه »

ونرى ان المعري يقصد هنا ان التحلل الخلقي قد عم اهل زمانه جميعهم فشمل ابن الحرة كما شمل ابن الزانية .انظر : ذكرى ابي العلاء لطه حسين ، الطبعة الثانية ، مكتبة الهلال بمصر ، ١٩٢٢ ، ٣٧٦ و ٣٧٩ .

(٣٧) ١ : ٢٣٨

(٣٨) ١ : ٢٥٨

(٣٩) ١ : ٢٣٥

(٤٠) ١ : ١٧٦ ؛ وانظر كذلك : ٢ : ٨١ ، ٤١٣

(٤١) ١ : ٣٧٥ ؛ وانظر : ١ ، ٥٩٤

(٤٢) ١ : ٤٥٢

ابلست من وسواس حلي خلتـــه
ابليس وسوس في صدور الناس (٤٣)

ويتحدث الشاعر عن عدم ائتمان المراة متمثلا بزوج امريء القيس التي لم يعصمها عاصم عـــن الخيانة ، فيقول :

فما امنت نسـوان قوم اعـــزة
علـــى عزهـا ان تستباح فروجها
وما تمنع الخـود الحصان حصونها
ولو انّ ابـراج السـماء بروجهـا
فما عرجت في شاوهـا ام جنـدب
ولا عقلتها شاوها وعروجهـــا(٤٤)

وهو يعمد الى تشبيه المراة بانثى الحيوان ، فان نسب بنيها ضائع لتعدد مـن يراودهـا مـن الذكور ، فيقول :

ولحب الصحيـح آثـــرت الروم
انتساب الفتـى الى امهاتـــه
جهلوا مـن ابـوه الا ظنـونا
وطـــلا الوحش لاحق بمهاتـه(٤٥)

لتلك الاسباب كلها ، يحذر المعري الوليـد ابـن عشر مـن الدخول على الحرم خشية غوايته، فيقول :

اذا بلغ الوليـد لديـك عشـــرا
فلا يدخل على الحرم الوليـــد
فان خالفتني واضعت نصحـــي
فانت وان رزقت حجىً بليـــد
الا ان النسـاء حبـــال غـيٍّ
بهـن يضيع الشرف التليـــد(٤٦)

وينهى الرجال عـن النساء ، فيقول :

اشـــدد يديـك بمـا اقـــول
فقـــول بعـض النـاس درٌّ
لا تدنـــونّ مـن النسـاء فـــان
نحـــب الاري مـــرّ
والبـــاء مثـــل الباء تخفـــض
للدنـــاءة او تجـــرّ (٤٧)

ويرى ابو العلاء «ان الغواني جمة تبعاتها»(٤٨) واهم تلك التبعات الحفاظ على العرض الذي يبدو وكأنه محال بنظر الشاعر كما راينا في الامثلـــة السابقة ، وفوق ذلك فقدرات النساء محدودة ، وعقولهـن دون عقول الرجال ، فهو يقول ذامـــا بعضهم :

في الحرب عقل رجال ان هم قتلوا
وفي الحجى عقل نسوان لها مسك(٤٩)

ويتحدث عن عجز النسـاء ، اذ لا يستطعن دفع الاعداء والذود عـن الثغور ، فيقول :

ولسـن بدافعات يـوم حـــرب
ولا في غـــارة متغشـــمات(٥٠)

وهـن تبعة اقتصادية وادبية على الاباء ،حيث يقول في هذا :

يردن بعولة ويـردن حليـــــا
ويلقين الخطـوب ملومـات(٥١)

فولادتهـن ـ كما يرى الشاعر ـ لا تعـدو ان تكون حزنا واسى للوالد الذي يستقبلهـن بوجه مسود وهو كظيم ، يقول المعري في هذا :

وان نعـط الانـــاث فاي بؤس
تبين في وجـوه مقسـمات(٥٢)

لتلك الاسباب يفضل الناس موت الفتاة علـى بقائها :

ودفـن والحـوادث موجعـــات
لاحداهـن احـدى المكرمات(٥٣)

يتضح مـن الامثلة التي اوردناها حتى الان موقف المعري مـن المراة بناحيتيه الايجابيـــة والسلبية . وذلك لا يعني تناقضا او عدم التـزام مـن قبل الشاعر(٥٤) ، اذ ان هناك اعتبـارات يحسـن الوقوف عندها قبل الحكم له او عليـه واول ما نضعه في حسابنا هو ان المعري لم يكـن ذاتيا(٥٥) ، فهو لم يقل ما قاله بسبب امراة معينـة كرهها او احبها ، وليس مـن اجل زوجة احسنت او اساءت اليه ، ولم يرد كذلك ذكر لام او اخت

---

(٤٣) ٢ : ٦١
(٤٤) ١ : ٢٥٦ ؛ وانظر : ١ : ٢٢٩
(٤٥) ١ : ٢٤٢ .
(٤٦) ١ : ٢٣٧
(٤٧) ١ : ٤٧٥ ؛ وكذلك ١ : ٢٢٩ ؛ ٢ : ٤١٢
(٤٨) ١ : ٢٠٨
(٤٩) ٢ : ٢٢١ ؛ وكذلك ٢ : ١٤٩
(٥٠) ١ : ٢٣٣
(٥١) نفس المكان
(٥٢) نفس المكان
(٥٣) نفس المكان ، وكذلك ١ : ٥٥٧ ؛ ٢ : ٣١
(٥٤) يرى امين الخولي ان هناك تناقضا في موقف المعري من المراة . انظر : راي في ابي العلاء لامين الخولي ، جماعة الكتاب بمناسبة العيد الالفي لميلاد ابي العلاء المعري ١٣٦٣ هـ ، ٧٨-٨٧
(٥٥) انظر اعلاه ح : ٣-٤ .

او قريبة له في اللزوميات ، وهذه الحقيقة تؤيد ان الرجل لم ينطق عن الهوى .

اما الاعتبار الثاني فهو وحدة الهدف التي تلتقي عندها سلبية الشاعر وايجابيته وقد اشرنا لذلك من قبل . فالامثلة تدل على ان هناك في ذهن ابي العلاء صورة لامراة (مستورة) حرة عاقلة ، تجيد عملا يدويا يقيها شر الفاقة وشر الفراغ معا ، امراة اهم ما يهمها رعاية زوجها والتعاون معه من اجل بناء اسرة شريفة . مثل هذه المراة جديرة بالحمد سواء اكانت شابة جميلة ام عجوزا شوهاء ثم ان الامثلة الاخرى تشير الى ان واقع المراة التي عاصرها المعري يختلف اختلافا كليا عما تصوره وعما اراده ان يكون . وهذا الواقع ـ كما يبدو من اللزوميات ـ جعل الشاعر يضع البيت والغزل والنسج في مكان ، ويضع القراءة والكتابة والعزف والخمر في مكان ثان ، فان انحرفت المراة عن الاول انجرفت حتما الى الثاني ، فسلبية الشاعر نحو المراة وايجابيته هدفهما واحد هو الحفاظ على العرض ، ومصدرهما واحد هو غيرة الرجل على هذا العرض ، وهو غيظ المرء يجد الشر والضلال حيث توسم الخير والجمال . لذلك نستطيع ان نقول ان هدف المعري ودافعه يبرران الاسلوب .

والاعتبار الثالث هو كون اللزوميات كتابا طابعه الذم الموجه ، ذم الدنيا الخسيسة وابنائها الاوباش الاخساء (١ : ٤٧) الدنيا التي فاضت بادناسها على جميع الناس (٢ : ٦٣) . ففساد المرأ والحالة هذه هو جزء من الفساد الشامل(٥٦). وقد راينا تحذير الشاعر اباها من الرجال ووصفهم بعدم الائتمان على الخرد وعرفنا بصحة المراة بتسكير الابواب بوجه جميع الرجال حتى ابيها واخيها(٥٧) . لذلك فان سهام النقد والذم ليست موجهة الى المراة بقدر ما هي موجهة

(٥٦) انظر تفصيل الحياة السياسية والاجتماعية والخلقية في عصر ابي العلاء المعري : تجديد ذكرى ابي العلاء لطه حسين : ٦٣ـ٧٥ ؛ والجامع في اخبار ابي العلاء المعري وآثاره لمحمد سليم الجندي ، الجزء الاول ، ٧١ـ١٢٥ .

(٥٧) انظر : الجامع في اخبار ابي العلاء ، الجزء الثالث، ١٥٤٧ .

ضد مجتمع فاسد بقصد كشف عوراته ، وان ذكر الفاسق بما هو فيه فضيلة .

اما الاعتبار الاخير فهو ان معظم صفات الذم التي خص الشاعر بها المراة لا تتعدى ان تكون جزءا من التراث الانساني عامة والعربي خاصة . من ذلك نعتها بقصر العقل والعجز عن التصدي لمهام الامور ، وعن تدبير عيشها وبكونها تغوي الرجال وتضيع عقولهم ، وتزل فتجلب العار للاعمام والاخوال ، وبالتالي فان موتها مكرمة ، وان التراب هو اكرم صهر(٥٨) .

تلك الاعتبارات تقلل من اهمية سلبية ابي العلاء وتخفف من حدتها ، وهي في الوقت ذاته تضيف الى ايجابيته الشيء الكثير من الاصالة والطرافة . وحتى لو تجاوزنا امتداحه النساء بسبب ما رافقه من شروط ومحاذير ، وبسبب الذم الذي نسخه ، يبقى لدينا دفاعه عنهن يحمل صرخة الحق على الباطل عبر القرون ، باقية تنبىء ان صاحب اللزوميات كان صديقا ـ لا عدوا ـ للمراة(٥٨) .

(٥٨) انظر : كتاب الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، ٢٣ ؛ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٣٠٥ـ٣٠٦ ؛ رسائل ابي بكر الخوارزمي ، دار مكتبة الحياة في بيروت ، ١٩٧٠ ، ٣٠ ، ٢١٤ ، ٧٨ـ٧٩ .

(٥٩) من اجل دراسة اكثر شمولا انظر في موضوع المراة اللزوميات :
١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١١٦ـ١١٧، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ـ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٧، ٣٧٥ ، ٣٩٨ ، ٤٧٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥١٠، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٦٢٣ .
٢ : ٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦، ٣١٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٥٥ ، ٤٧١ ، ٥١٨ ، ٥٦٦ ، ٦٢٥ .